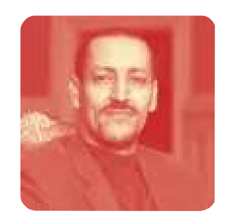
قرنان من الصمت: كان الفاتحونَ أجلافًا، حاربوا الفارسية، وفرض السِّنان

أحمد فال الدين قراءات



صحفي و روائي
فلا عَبَرتْ بِي ساعةٌ لا تُعِزُّني * ولا صحِبتْني مُهجةٌ تقبلُ الظلما!

11 د. الخليج العربي مقالة

كتب المؤرخ القومي الإيراني عبد الحسين زارينكوب كتاباً منتصفَ القرن الماضي بعنوان "قرنان من الصمت" (دو قرنِ سكوتْ). بسط المؤلف

الفارسية بعدُ- مفادها أن القرنين الأوّليْن لدخول الإسلام لفارس كانا قرنيْ صمت وتجهيل واضطهاد ثقافي. وتتأسس النظرية على أن الفاتحين كانوا

فحاربوا اللغات الفارسية، وفرضوا العربية بحد السِّنان، مما حتّم على الفرس التقوقعَ والسكوت الأدبي مائتيْ عام.

ومع انتشار الفكرة في الدراسات الفارسية فإن من يقرأ الكتاب يفهم أنه وُضع للخروج من مأزق تاريخي مزعج للعقلية القومية الإيرانية التي كانت في عن العلمي والثقافي لبلاد فارس قبل الإسلام، لكن الواقع والدراسة المتأنية لا يعززان الصورة القابعة في الذهن القومي. ولذا، فقد عاد المؤلف في تقديمه معترفا بأنه "كان مليئا بالعنصرية والأخطاء؛ لعجزي عن الاعتراف بأخطاء إيران أو هزيمة إيران[1]". ومع أن النسخة التي بين أيدينا نسخة معدلة –ب ومجانبة الأمانة العلمية.

ولعل من يقرأ الكتاب ويرى كيف يطلق صاحبه الأحكام الخطرة العارية من الأدلة يفهم سبب عدم ترجمته للغات أخرى، إذ لم يترجم للإنكليزية مثلا للعربية.

فرضية الاضطهاد اللغوي

إن البحث التاريخي المعاصر لا يعضد وجود أدب معتبر في الفارسية القديمة. وقد أقر بذلك أغلب الدارسين المهتمين حتى أولئك المغرمون بفارس ريتشارد فراي. إذ يرى أنه "يعسر على الباحث إيجاد أدلة على وجود كتابات إيرانية قبل الإسلام، خصوصا بالمقارنة مع الرومان والإغريق[3]".

فرغم كثرة التنقيب والترجمات، ووجودَ دعم سخي للبحث لم يجد القومُ ما يثبت وجود نصوص أدبية جادة تعود لما قبل الإسلام. ويكاد ما وُجد أن ينصر وغير ذلك من تقاليد الوثنية السياسية الكسروية. أما الشعر النفاذُ، والنثر الأخاذُ الذي ظهر تحت ظل الإسلام فلا أثر له قبل ذلك، لأنه كان منتجًا إسلا والتعليم الذي جاء به الدين الجديد، وولده التزاوج اللغوي مع لغة فتية شاعرة قادمة من صحراء العرب.

وأمام هذا الواقع المعرفي وقع العقلُ القومي في مأزق ناتج عن حقيقتين.

الأولى: غياب نصوص أدبية أو علمية مكتوبة بالفارسية القديمة.

الثانية: بروز اللغة الفارسية الإسلامية واحدةً من أزهى لغات العالم وأكثرها عذوبة وأعمقها أدبًا، مما أنتج رجالاً مثل السنائي وحافظ وسعدي والخيام

وهاتان الحقيقتان تزعجان العقل القومي المعادي للإسلام لتضمنهما خلاصة تقول إن الإسلام هو الذي منح اللغة الفارسية عمقها الفلسفي وعذوبتها الا وحُقنت الفارسيةُ بالعربية مما "منح العالم لساناً من أعذب الألسنة التي سمع"[4].

وللخروج من هذا المأزق افترض المؤلف -وغيرُه من القوميين – وجود أدب راق لكنه ضائع. وحشد الرجل في كتابه عشرات الصفحات للتدليل علىٍ الفرس الصمتَ عن الإنتاج الأدبي، وعلى تلك اللغات الزوال. وفي مرافعته تلك لا يقدم أدلة بل يكتب نثرا شعرياً جنائزياً، من قبيل:

"في الوقت الذي كانت فيه النغمات البهلوية لبربار ونغيسا تملآن البلاط الساساني بالأصوات العذبة كان اللسان العربي -بين أفواه العرب- أيبسَ وأتعس فإنما هو هيعة لص! كانت كلماتهم لا تحمل أي توجيه، ولا عاطفة، وشعرُهم متمحور حول الميسر وأعضاء الإبل، وكانت اللغات الإيرانية مليئة باله يقرؤون الكتب الدينية ويغنون أغاني الجنان، ويكتبون قصصا عن ملوكهم… ويقدرون الكلمة الجميلة[5]".

ولا يحتاج القارئ إلى التذكير بـعناية العرب بالكلمة الجميلة ودَورانِ حياتهم حولها، وهم الذين وضعوا قبائل من أشرافهم لأن شاعرا هجاهم بأبيات بليغة العرب معروفة، لكن الكاتب القومي يتجاهل كل ذلك.

وبعد صفحات من هذا النمط يختم المؤلف أحد فصوله قائلا: "هل يمكننا أن نتخيل أن العرب سيتركون كتب الزرادشتيين مثلا دون إحراق؟!" حتى يبرر ا

والواقع أن مكتبات البصرة والكوفة وبغداد كانت زاخرة بكتب الزردشتية والمانوية والثنوية وغيرهم تحت ظل الإسلام وفي القرن الثاني الهجري، ثم طو المقطع التالي من كاتب لأهل القرن الثاني والثالث ينسف فرضية عدم تسامح العرب مع كتب الزرادشتيين.

ينقل الجاحظ حوارا بينه إبراهيم السندي، أحد أبرز مثقفي عصره. حيث يعبر السندي عن إعجابه بكتب الزرادشتيين والمانوية المعروضة في المكتبات، مفترضًا أن باعث ذلك تعظيمُ العلم، وأن هذا منزع محمود.

لكن الجاحظ ينقد فكرة صديقه، كاشفا عن أن الحرص على تزويقها الخارجي عائد إلى خوائها المضموني. يقول الجاحظ:



"قلت لإبراهيم: إنّ إنفاق الزنادقة على ت
ولو كانت كتب الزنادقة كتبَ حكمٍ وكتبَ ف
لو كانت كتبهم كتبا تعرّف الناس أبوابَ
كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعضَ ما ي
ذلك لا يقرّب من غنى ولا يبعد من مأث
البيان، والرغبة في التبيّن. ولكنّهم ذهبوا ف
فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس عل
الذهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البد
معرضا، وكتب الحكمة لهم مبذولة، والطر
ذلك إلّا بكتب دياناتهم، كما يزخرف النصا

يبين هذا النص الثمين الذي كتبه أحد مثقفي ذلك العصر أمريْن هامين:

وجود كتب الملل والنحل المختلفة على رفوف مكتبات المسلمين دون تضييق أو إحراق، أو عُقَدٍ ثقافية.

خواءُ تلك الكتب من العلوم التجريبية والآداب والحِكم، وانصرافها للدين فقط.

وما دام الأمر كذلك فمن الطبيعي أن تبور مع الوقت بسبب اعتناق أهل فارس للإسلام، وتبنيهم للحرف العربي الذي ظلوا يكتبون به الفارسية حتى اليوم.

ولعل الاعتراف الذي سجله المؤلف في مقدمة كتابه يكشف الجانب الخيالي في فرضيته التي بنى عليها كتابه. فقد كتب أنه ألفه تحت تخدير ملحمة الش
معاركها الساحرة، وتتملىّ صورَها الخلابة[7]. لكن الحقائق شيء، وديوان الشاهنامه شيء آخر، باتفاق المؤرخين.

كان الرجل يخاطب قوميين يريدون بناء ذاكرة قومية فحسب، دون التفات إلى الحقائق التاريخية. فبناء الصورة الذهنية الزاهية مؤثر في الواقع بغض النـ

نبه المؤرخ البريطاني-الإيراني هوما كاتوزيان إلى قوة تأثير هذا الخيال في النفسية الإيرانية(مع التحفظ على التعميم) قائلا: "إن الإيراني العادي أقربـ

شعر مناسب أو بتفسير ما ورائي وغير منطقي، منه إلى تصديقه بالحجة المنطقية أو الدليل التجريبي.[8]"

الفارسية القديمة.. بين الواقع والخيال

من طرائف الأدلة التي يقدمها المؤلف لتبرير غياب الشعر من الفارسية في القرنين التاليين للفتح الإسلامي أن الفرس كانوا يخافون من كتابة الشعر تحت

عن الخمر والنساء، وهذه أمور محرمة في الشعر العربي[9].

وأي منصف يعلم أن الشعر العربي لا يكاد يخلو من ذكر للمرأة والخمر، فليس متصالحا معهما فحسب، بل يكاد يكون الحديث عنهما شرطا من شروط ا

لكن الحقائق شيء، والتحيز العرقي شيء آخر. إذ يكاد الباحثون يجمعون على أن الألق الذي شهدته الفارسية عائد إلى تلقيحها باللغة العربية كما أشرنا أ

الفارسية إلى قرنين من الزمن حتى تتكون خميرتها اللغوية والشعرية، وحتى يتحول المجتمع وينشأ نشأة مستأنفة (بالمفهوم الخلدوني) قائمةً على ثقافة عا

ولذا لم تشهد الفارسية دخولا لعالم الشعر والأدب والفكر إلا بعد أن لقحتها لغة العرب كما يرى ريتشارد فراي (وهو رجل معروف بحبه لإيران حتى

"إيران دوسته" (صديق إيران) وأوصى أن يدفن في أصفهان وهو ما تحقق له بعد إذن من الرئيس نجاد).

فقد أكد فراي أن"الفرق البارز بين البهلوية (الفارسية القديمة) والفارسية الجديدة هو الحضور الهائل للعربية في هذه الأخيرة. وهذا العامل هو الذي جعل

البهلوية، فقد كانت العربية بلا ريب هي التي منحت الفارسية ثراءها الذي قاد إلى نهضتها الأدبية في مجال الشعر خصوصا. فقد ولدت الفارسيةُ الجدي

لكنهم يكنون حبا خاصا للغتهم[10]".

الفارسية الإسلامية

بل ينبه فراي –وغيره من الباحثين- إلى أن الترجمة من العربية هي التي خلقت الفارسية كما نعرفها اليوم، فقد "بدأت النهضةُ الأدبية في بلاط السام

الفارسي كان ترجمةً عن العربية، كترجمة تاريخ الطبري، وتفسيره.[11]".

ولعل حالة الفارسية شبيهة بحالة العربية من كون الإسلام كان عامل البعث لها وإنشائها إنشاءا باعتبارها لغة علوم وآداب وفنون، فالنهضة الفارسية

مات[12].”

والباحث لا يستغرب وجود هذا النمط من الفرضيات المتحيزة ضد الإسلام والعرب، فما هذه الظاهرة إلا خلفًا لسلفٍ شعوبيٍ ظهر ثم اندثر، وظل الفرس

تنافح عنه بالسيف والقلم.

وهذا النمط من الشعوبية معزول جدًا في المجتمع الإيراني تمامًا كالشعوبية القديمة التي يجزم كاتوزيان بأنها كانت موضةً فكرية في جماعة محدودة من ا

مصادر

[1] Abdolhossein Zarinkoob, XXIV.

[2] ıossein Zarinkoob, *Two Centureis Of Silence,* (Bloomington:Outhor House), 2016, trans. by Avid Kamgar

[3] Richard N. Frye, *The Heritage Of Persia*, (London: Weidnfeld and Nicolson,),1962, 2.

[4] Peter Avery, The Spirit Of Iran, (California: Mazda Publishers Inc, 2004), 217.

[5] Abdolhossein Zarinkoob, 84.

[6] عمرو بن بحر الجاحظ، **الحيوان**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 ه) 1/2.

[7] Abdolhossein Zarinkoob, XXIV.

[8] هوما كاتوزيان، **الفرس**، **(**بيروات: دار جداول، 2014م)، ترجمة: أحمد حسن المعيني، 35.

[9] Zarinkoub, Two Centries of Silence, 93

[10] Richard N. Frye, *The Heritage Of Persia*, (London: Weidnfeld and Nicolson,),1962, 252.

[11] Frye, 254.

[12] Frye, 254

[13] هوما كاتوزيان، **الفرس**، (بيروت: دار جداول، 2014م)، ترجمة: أحمد حسن المعيني، 108.